حديث
«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ...»
دراسة عقدية

للدكتورة سلوى بنت محمد المحمادي[1]

ملخص البحث:

هذا البحث هو شرح لحديث الرسول ﷺ: « المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» وهذا الحديث، وإن سبق شرحه قديماً وحديثاً، إلا أني لم أقف على من درسه دراسة عقدية تبرز ما فيه من مسائل كثيرة

---

(١) الأستاذ المساعد بقسم الدراسات الإسلامية، تخصص العقيدة والمذاهب المعاصرة بكلية التربية للبنات بمكة المكرمة - الأقسام الأدبية.

تتعلق بأساس الدين وأصله، إذ فيه من المسائل العقدية الشيء الكثير؛ إذ فيه من المسائل المتعلقة بألوهية الله وربوبيته وأسمائه وصفاته، ونحو ذلك؛ ما يؤكد الحاجة الضرورية لدراسته.

ولهذا كتبت فيه هذا البحث الذي بدأته بمقدمة ذكرت فيها أهمية وسبب اختياره، ثم كتبت تمهيداً ضمنته ذكر الحديث برواياته، ثم شرحه شرحاً إجمالياً مع بيان مكانته وما قاله العلماء فيه، ثم قسمت البحث إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: قوله ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير».

المبحث الثاني: قوله ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله».

المبحث الثالث: قوله ﷺ: «ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا».

ثم ختمته بخاتمة ذكرت فيها أهم نتائجه، ثم وضعت فهرساً لأهم المصادر والمراجع.

أسأل الله الحليم رب العرش العظيم إخلاص النية، وصلاح العمل، وصلى الله على نبينا محمد بن عبدالله وآله وسلم.

للدكتورة: سلوى بنت محمد المحمادي

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله العلي العظيم من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأصلي وأسلم على نبي الرحمة والهدى محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

أما بعد:

فهذا الحديث فيه الأمر بفعل الأسباب والاستعانة بالله، وفيه التسليم لأمر الله والرضا بقدر الله ﷻ .

ومما يدل على أهميته أن فيه وصايا أوصى بها النبي ﷺ صحابته ﷺ، وهي وإن كانت موجهة للصحابة في ذلك الحين إلا أنها وصايا للأمة جمعاء، وإرشاد نبوي لكل من أراد النجاة في الدنيا والآخرة.

وقد اعتنى العلماء بهذا الحديث، قديماً وحديثاً، شرحاً وتفصيلاً، فتتبعت ما كتب فيه فرأيت أنه بحاجة إلى دراسة عقدية تظهر ما فيه من مسائل عظيمة تتعلق بأشرف العلوم وأجلها قدراً، وأوجبها مطلباً، وهو علم التوحيد؛ لأنه مفتاح الطريق إلى الله ﷻ، وأساس الشرائع، قال ﷻ :﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا

ﭐللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

فإن كثيراً ممن كتب في شرح هذا الحديث اعتنى ببسط مسائله المختلفة، إلا أن التركيز على مسائله العقدية من أهم المهمات، فرأيت أن الحديث بحاجة إلى دراسة عقدية تبرز ما فيه من مسائل.

وقد بدأت البحث بمقدمة ذكرت فيها أهمية وسبب الكتابة في هذا الموضوع، ثم تمهيداً ذكرت فيه الحديث ومكانته وشرحه إجمالاً.

بعد ذلك قسمت البحث إلى ثلاثة مباحث، كل فقرة في الحديث جعلتها في مبحث مستقل.

ثم ختمت هذه الدراسة بخاتمة كتبت فيها أهم ما توصلت إليه إجمالاً.

التمهيد:

✿ متن الحديث:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص على ما ينفعك، و استعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَّر الله وما شاء فعل، فإن «لو»

تفتح عمل الشيطان»[١].

وفي رواية: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص على ما ينفعك، و استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا. ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل. فإن «لو» تفتح عمل الشيطان »[٢].

وفي رواية: عن أبي هريرة ، يَبْلُغُ به النبي ﷺ ؛ قال: « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص على ما ينفعك، ولا تعجز، فإن غلبك أمر، فقل: قَدَرُ الله وما شاء فعل، وإياك واللو، فإن اللو تفتح عمل الشيطان »[٣].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب القدر (٤٦)، باب (٨) في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله، وتفويض المقادير لله، (٢٠٥٢/٤).

(٢) رواه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب (١٠)، ح(٧٩) (٣١/١). وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب آداب القاضي، باب فضل المؤمن القوي الذي يقوم بأمر الناس ويصبر على أذاهم، (٨٩/١٠).

(٣) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب (٣٧) الزهد، باب (١٤) التوكل واليقين، ح(٤١٦٨) (١٣٩٥/٢)، والإمام أحمد في المسند، (٣٦٦/٢، ٣٧٠).

✪ مكانة الحديث:

حديث أبي هريرة ﷺ هذا حديث عظيم ـ وكل أحاديث الرسول ﷺ عظيمة وشريفة ـ، فهو خبر نبوي عظيم بالخيرية للمؤمن القوي، وأوامر نبوية كريمة عظيمة الشأن بالحرص على كل ما ينفع الإنسان في دنياه وآخرته، والاستعانة بالله ﷻ، وعدم العجز.

وشمل الحديث أيضاً توجيهاً نبويّاً كريماً بصدق التوكل على الله ﷻ مع الأخذ بالأسباب وتفويض المقادير لله، والابتعاد عما يفتح على الإنسان عمل الشيطان.

وقد اشتمل هذا الحديث على مسائل عقدية تُعدّ أصولاً عظيمة من أصول الإيمان:

أحدها: أن الله سبحانه موصوف بالمحبة، وأنه يحب حقيقة.

الثاني: أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها، فهو القوي، ويحب المؤمن القوي، وهو وتر يحب الوتر، وجميل يحب الجمال، وعليم يحب العلم، ونظيف يحب النظافة، ومؤمن يحب المؤمنين، ومحسن يحب المحسنين، وصابر يحب الصابرين، وشاكر يحب الشاكرين.

ومنها أن محبته للمؤمنين تتفاضل فيحب بعضهم أكثر من

بعض[١].

الثالث: إخلاص العبادة لله وحده، و التوكل عليه والاستعانة به، والإيمان بالقضاء والقدر.

ومما يدل على مكانته: اختيار الإمام النووي رحمه الله له ليكون ضمن كتابه القيم «رياض الصالحين» ووضعه في باب المجاهدة وكان رقمه السادس في الباب والمئة من جملة الأحاديث التي بلغت (١٨٩٦) حديثاً، وقد قال في مقدمتها:

« فرأيت أن أجمع مختصراً من الأحاديث الصحيحة، مشتملاً على ما يكون طريقاً لصاحبه إلى الآخرة، ومحصلاً لآدابه الباطنة والظاهرة، جامعاً للترغيب والترهيب، وسائر أنواع آداب السالكين، من أحاديث الزهد، ورياضات النفوس، وتهذيب الأخلاق، وطهارات القلوب وعلاجها، وصيانة الجوارح وإزالة اعوجاجها، وغير ذلك من مقاصد العارفين »[٢].

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، خرج نصوصه وعلق عليه: مصطفى أبو النصر الشلبي، مكتبة السوادي، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩١م، (٥٨/١).

(٢) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، أبي زكريا بن شرف النووي، دار

ويقول الإمام ابن القيم ﵀ عن أهمية هذا الحديث:

« إنه مما لا يستغني عنه العبد أبداً، بل هو أشد شيء إليه ضرورة وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار والقيام والعبودية ظاهراً وباطناً في حصول المطلوب وعدمه، وبالله التوفيق»[1].

ويقول ـ أيضاً ـ: « عن قوله -عليه الصلاة والسلام- : "احرص على ما ينفعك واستعن بالله، ولا تعجز ". فالدين كله ظاهره وباطنه، شرائعه وحقائقه، تحت هذه الكلمات النبوية، والله أعلم »[2].

✪ شرح الحديث إجمالاً:

قوله: « المؤمن القوي » هو من يقوم بالأوامر، ويترك النواهي بقوة ونشاط، ويصبر على مخالطة الناس ودعوتهم، ويصبر على أذاهم. أي: القوي في إيمانه، وليس المراد القوي في بدنه؛ لأن قوة البدن ضررٌ على الإنسان إذا استعمل هذه القوة في معصية الله.

فقوة البدن ليست محمودة ولا مذمومة في ذاتها، إذا كان الإنسان استعمل هذه القوة فيما ينفع في الدنيا والآخرة صارت

الكتاب الإسلامي، ص(٣).

(١) شفاء العليل، (١/٥٩).

(٢) مدارج السالكين، تحقيق: محمد حامد الفقي، (٣/٥٠١).

محمودة، وإن استعان بهذه القوة على معصية الله صارت مذمومة»[١].

يقول الشيخ العثيمين رحمه الله : « لكن القوة في قوله ﷺ : « المؤمن القوي » أي: قوي في الإيمان، ولأن كلمة القوي تعود إلى الوصف السابق وهو الإيمان، كما تقول: الرجل القوي، أي: في رجولته، كذلك المؤمن القوي في إيمانه؛ لأن المؤمن القوي في إيمانه تحمله قوة إيمانه على أن يقوم بما أوجب الله عليه، وعلى أن يزيد من النوافل ما شاء الله، والضعيف الإيمان يكون إيمانه ضعيفاً لا يحمله على فعل الواجبات وترك المحرمات فيقصر كثيراً » [٢].

وقوله: « خير » يعني خير من المؤمن الضعيف، وأحب إلى الله. ثم قال ﷺ : « وفي كل خير » يعني المؤمن القوي، والمؤمن الضعيف كل منهما فيه خير.

وإنما قال: « وفي كل خير » لئلا يتوهم أحد من الناس أن

---

(١) شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، لفضيلة الشيخ/ محمد بن صالح العثيمين، دار البصيرة، مصر، الطبعة الثانية، (٤٥٩/١)، وتطريز رياض الصالحين، فيصل بن عبدالعزيز آل مبارك، تحقيق: عبدالعزيز بن عبدالله بن إبراهيم الزير آل حمد، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م، ص(٩٠).

(٢) شرح رياض الصالحين، (٤٥٩/١).

المؤمن الضعيف لا خير فيه، بل المؤمن الضعيف فيه خير، فهو خير من الكافر لا شك.

وهذا الأسلوب يسميه البلاغيون: الاحتراس، وهو أن يتكلم الإنسان كلاماً يوهم معنى لا يقصده، فيأتي بجملة تبين أنه يقصد المعنى المعين[1].

وقوله ﷺ : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز »، أي: احرص على طاعة الله تعالى، والرغبة فيما عنده، واطلب الإعانة من الله تعالى على ذلك، ولا تعجز ولا تكسل عن طلب الطاعة، ولا عن طلب الإعانة[2].

ومعنى: « احرص على ما ينفعك » « أي: اهتم بما ينفعك اهتمام الحريص الذي يحتاط كثيراً في الأمور » [3].

وهذه الكلمة جامعة عامة: « على ما ينفعك » أي: على كل

---

(١) شرح رياض الصالحين، (١/٤٥٩).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، الطبعة الأولى، ١٣٤٩هـ-١٩٣٠م، المطبعة المصرية بالأزهر، (١٦/٢١٥).

(٣) منهج الواردين شرح رياض الصالحين، د/ صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، (١/١١٢).

شيء ينفعك سواء في الدين أو في الدنيا، فإذا تعارضت منفعة الدين ومنفعة الدنيا، فإنها تقدم منفعة الدين؛ لأن الدين إذا صلح صلحت الدنيا، أما الدنيا إذا صلحت مع فساد الدين فإنها تفسد.

فقوله: « على ما ينفعك » يشمل منافع الدين والدنيا، وعند التعارض تقدم مصلحة الدين.

وفي قوله: « احرص على ما ينفعك » إشارة إلى أنه إذا تعارض منفعتان إحداهما أعلى من الأخرى فإننا نقدم المنفعة العليا، لأن المنفعة العليا فيها المنفعة التي دونها وزيادة، وبالعكس إذا كان الإنسان لا بد أن يرتكب منهيّاً عنه من أمرين منهي عنهما وكان أحدهما أشد؛ فإنه يرتكب الأخف، فالمناهي يقدم الأخف منها، والأوامر يقدم الأعلى منها[1].

وقوله ﷺ : « واستعن بالله » أي: توكل عليه والجأ إليه، ولا تنس الاستعانة بالله ولو على الشيء اليسير.

يقول الشيخ العثيمين: « ما أروع هذه الكلمة بعد قوله: «احرص على ما ينفعك »؛ لأن الإنسان إذا كان عاقلاً ذكيّاً فإنه يتتبع المنافع

(١) شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين، (١/٤٦٠-٤٦١).

ويأخذ بالأنفع، وربما تغرّه نفسه حتى يعتمد على نفسه وينسى الاستعانة بالله، وهذا يقع لكثير من الناس، حيث يعجب بنفسه ولا يذكر الله ﷻ ويستعين به، فإذا رأى من نفسه قوة على الأعمال وحرصاً على النافع وفعلاً له، أعجب بنفسه ونسي الاستعانة بالله»[(١)].

وقوله ﷺ : « واستعن بالله » دلالة على أن يستعان بالله دون غيره، وأن لا يعتمد على مخلوق، فالاستعانة هي طلب العون، ولا يطلب العون من أي إنسان « إلا للضرورة القصوى، ومع ذلك إذا اضطررت إلى الاستعانة بالمخلوق فاجعل ذلك وسيلة وسبباً، لا ركناً تعتمد عليه » [(٢)].

يقول ابن رجب: « وأما الاستعانة بالله ﷻ دون غيره من الخلق، فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصلحة، ودفع مضرة، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله ﷻ، فمن أعانه الله فهو المعان... ، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات » [(٣)].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق، (٢/٤٢٥، ٤٥٣).

(٣) جامع العلوم والحكم، ص(١٦٨).

وقوله: « لا تعجز » -بكسر الجيم وهو الأفصح- أي لا تفرط في طلب ذلك ولا تضعف عن القيام به، ولا تكسل وتتأخر في العمل إذا شرعت فيه، بل استمر؛ لأنك إذا تركت ثم شرعت في عمل آخر، ثم تركت ثم شرعت ثم تركت ما تم لك عمل.

وكان من هدي النبي ﷺ أن يبدأ بالأهم الذي تحرك من أجله(١).

وقوله: « فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا».

يعني: بعد أن تحرص وتبذل الجهد وتستعين بالله وتستمر، ثم يخرج الأمر على خلاف ما تريد فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا؛ لأن هذا أمر فوق إرادتك. أنت فعلت الذي تؤمر به، ولكن الله ﷻ غالب على أمره ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف:٢١].

فالإنسان إذا بذل ما يستطيع بذله، وأخلفت الأمور فحينئذٍ يفوض الأمر إلى الله؛ لأنه فعل ما يقدر عليه، ولهذا قال: « وإن أصابك شيء » يعني: بعد بذل الجهد والاستعانة بالله ﷻ ، « فلا تقل

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص(١٦٨)، ومنهل الواردين، د/ صبحي الصالح، (١١٢/١).

لو أني فعلت لكان كذا وكذا ».

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ : « فأمره بالحرص على ما ينفعه، والاستعانة بالله ونهانا عن العجز الذي هو الاتكال على القدر، ثم أمره إذا أصابه شيء أن لا ييأس على ما فاته، بل ينظر إلى القدر ويسلم الأمر إلى الله، فإنه هنا لا يقدر على غير ذلك كما قال بعض العقلاء:

الأمور أمران: أمر فيه حيلة، وأمر لا حيلة فيه.

فما فيه حيلة لا تعجز عنه، وما لا حيلة فيه لا يجزع منه » [(١)].

وجزى الله عنا نبينا خير الجزاء، فقد بين لنا الحكمة من ذلك، حيث قال: « فإن لو تفتح عمل الشيطان »، أي: تفتح عليك الوساوس والأحزان والندم والهموم، حتى تقول: لو أني فعلت لكان كذا، فلا تفعل هكذا، والأمر انتهى ولا يمكن أن يتغير عما وقع، وهذا أمر مكتوب في اللوح المحفوظ قبل أن تخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة».

ولهذا قال: « ولكن قل: قدر الله »، أي: هذا قدر الله أي تقدير

---

(١) مجموع الفتاوى، (٨/٢٨٥، ٣٢٠).

الله وقضاؤه، وما شاء الله ﷻ فعله ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]، لا أحد يمنعه في ملكه ما يشاء، ما شاء فعل ﷻ ...

فأنت إذا بذلت الجهد و استعنت بالله، وصار الأمر على خلاف ما تريد لا تندم، ولا تقل: لو أني فعلت لكان كذا، إذا قلت هذا انفتح عليك من الوساوس والندم والأحزان ما يكدر عليك الصفو، فقد انتهى الأمر وراح، وعليك أن تسلم الأمر للجبّار ﷻ قل قدر الله وما شاء فعل [١].

وقوله: « فإن لو تفتح عمل الشيطان »: (لو) اسم إن قصد لفظها؛ أي: فإن هذا اللفظ يفتح عمل الشيطان.

وعمله: ما يلقيه في قلب الإنسان من الحسرة والندم والحزن؛ فإن الشيطان يحب ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة:١٠].

فإذا رضي الإنسان بالله ربّاً، وقال: هذا قضاء الله وقدره، وأنه لا بد أن يقع اطمأنت نفسه وانشرح صدره [٢].

---

(١) شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين، (١/٤٦٣-٤٦٤).

(٢) القول المفيد شرح كتاب التوحيد، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ، (٢/٣٧٢).

يقول الشيخ ابن عثيمين ﷺ : « والله لو أننا سرنا على هدى هذا الحديث لاسترحنا كثيراً » [١].

المبحث الأول: قوله ﷺ «المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف...»:

استهل النبي ﷺ هذا الحديث بقوله: « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ».

فمن هو المؤمن؟

المؤمن: هو الذي يؤمن بوجود الله ﷻ، وبربوبيته وبأسمائه وصفاته وبأحكامه وأخباره، وكل ما يأتي من قبله ﷻ راجياً ثواب الله، خاشياً عقابه[٢].

وهل جميع الناس سواء في الإيمان؟

لا. فالناس تتفاضل في الإيمان، فإخبار النبي ﷺ في الحديث بأن المؤمن القوي، فالمراد القوي في إيمانه وليس في بدنه؛ لأنه لو كان يقصد قوة البدن لم يقل ﷺ المؤمن ولقال: جسد المؤمن أو جسم المؤمن.

---

(١) شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين، (١/٤٦٣-٤٦٤).

(٢) شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين، (١/٣٩٦)، ولسان العرب، لابن منظور، (١٣/٢٤).

قال الشيخ العثيمين: وهل يدخل في ذلك قوة البدن؟

الجواب: لا يدخل في ذلك قوة البدن إلا إذا كان في قوة بدنه ما يزيد على إيمانه أو يزيد ما يقتضيه؛ لأن «القوي» وصف عائد على موصوف وهو المؤمن؛ فالمراد: القوي في إيمانه أو ما يقتضيه، ولا شك أن قوة البدن نعمة، إن استعملت في الخير فخير، وإن استعملت في الشر فشر »[١].

فقول النبي ﷺ : المؤمن القوي - المؤمن الضعيف، لدليل قوي على أن من الناس من يكون إيمانه قويّاً لا يزعزعه شيء، وهناك من يكون إيمانه ضعيفاً.

فالخيرية قائمة بين المؤمنين في صفة الإيمان، فمن كان إيمانه قويّاً فهو خير وأحب إلى الله ﷻ من المؤمن الضعيف الذي لا يقوم بواجباته على أكمل وجه، وإنما هو مقصر كثيراً.

ولئلا يتوهم أحد من الناس أن المؤمن الضعيف لا خيرية فيه، قال النبي ﷺ : « وفي كل خير » فالمؤمن الضعيف خير من الكافر لا شك في ذلك.

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد، لابن عثيمين، (٢/٣٦٦).

فإن قيل: إن الخيرية معلومة في قوله: « خير وأحب »؛ لأن الأصل في اسم التفضيل اتفاق المفضل والمفضل عليه في أصل الوصف؟

فالجواب: أنه قد يخرج عن الأصل؛ كما في قوله تعالى: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا ﴾ [الفرقان:٢٤]، مع أن أهل النار لا خير في مستقرهم. كذلك الإنسان إذا سمع هذه الجملة: «خير وأحب» صار في نفسه انتقاص للمؤمن المفضل عليه، فإذا قيل: «وفي كل خير» رفع من شأنه ونظيره[1] قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحديد:١٠].

ومما يؤخذ من هذا الجزء من الحديث أمران:

☐ **الأمر الأول: إثبات زيادة الإيمان ونقصانه:**

أخذاً من قوله ﷺ : « المؤمن القوي » في مقابلة: « المؤمن الضعيف »، فدلّ على أن الإيمان يزيد وينقص، وهذا المجمع عليه عند أهل السنة والجماعة وهو المأثور عن الصحابة والتابعين وأتباعهم إلى عصرنا هذا، وأقوالهم منثورة في الآفاق، فلم يخل عصر ولا

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد، لابن عثيمين، (٢/٣٦٧).

مصر من قائم بدين الله من أهل السنة و الجماعة مبيناً لهذا الأصل.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « وأجمع السلف أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص » [١].

وقال الأصبهاني[٢] رحمه الله : « والإيمان قول وعمل ونية، يزيد وينقص، زيادته البر والتقوى، ونقصانه الفسوق والفجور » [٣].

وقد بدع الأوزاعي[٤] رحمه الله من زعم أن الإيمان يزيد ولا ينقص

---

(١) مجموع الفتاوى، (٧/٦٧٢).

(٢) هو شيخ الإسلام الحافظ الكبير إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي بن أحمد بن طاهر التميمي الأصبهاني، وكنيته أبو القاسم، ويلقب بشيخ الإسلام، وبقوام السنة، وبجوزي، ولد ونشأ بأصبهان، توفي سنة ٥٣٥هـ. انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير، حوادث سنة ٥٣٥هـ، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٥م، وشذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، المكتب البخاري للطباعة، بيروت، (٤/١٠٥-١٠٦)، والبداية والنهاية، لابن كثير، نشر مكتبة المعارف، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، واللباب في تهذيب الأنساب، لابن الأثير الجزري، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠م.

(٣) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التميمي الأصبهاني، تحقيق ودراسة: محمد بن ربيع بن هادي المدخلي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م، دار الراية، الرياض، (٢/٢٦٤).

(٤) هو عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي، أبو عمرو، الفقيه، ثقة جليل، مات ٥٧هـ. انظر: تقريب التهذيب، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ضبط

فقال: « الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، فمن زعم أن الإيمان يزيد ولا ينقص فهو صاحب بدعة » (١).

وقد احتج من قال إن الإيمان يزيد ولا ينقص بقوله: إن النقص لم يرد في القرآن الكريم بل كل ما ورد فيه زيادة.

قال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر:٣١]، وقال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح:٤].

نقول له وبالله التوفيق:

١- « بثبوت هذه الآيات يثبت المقابل، فإن كل قابل للزيادة قابل للنقصان ضرورة » (٢).

٢- من لازم ثبوت الزيادة ثبوت النقص عن الزائد، وعلى هذا يكون القرآن دالّاً على ثبوت نقص الإيمان بطريق اللزوم، كما أن السنة جاءت به صريحة في قوله ﷺ: « ما رأيت من ناقصات عقل

ومراجعة: صوفي جميل العطار، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، دار الفكر، (١/٣٤٦).

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي، تحقيق: د/ أحمد بن سيد بن حمدان الغامدي، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م، دار طيبة، الرياض، (٥/٣٠).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، دار الفكر، (١/٤٧).

ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن »[1]. يعني: النساء.

والإيمان يزيد بالكمية والكيفية؛ فزيادة الأعمال الظاهرة زيادة كمية، وزيادة الأعمال الباطنة كاليقين زيادة كيفية[2]؛ ولهذا قال إبراهيم ﷺ : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠].

المخالفون في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه:

١) الوعيدية: ـ من الخوارج[3] والمعتزلة[4]ـ لا يقرّون بزيادة

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب نقصان الإيمان، (٨٦/١)، عن ابن عمر ﷺ .
وأخرجه البخاري، كتاب (٦) الحيض، باب (٦) ترك الحائض الصوم. فتح الباري، (٤٠٥/١) ح(٣٠٤).

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد، لابن عثيمين، (٧٣٧/٢).

(٣) الخوارج: فرقة خرجت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ عام ٣٧هـ، بسبب مسألة التحكيم في موقعة صفين، و صاروا يحكمون بكفر مرتكب الكبيرة، وقد قاتلهم عليّ وأصحابه ﷺ ، وورد في ذمهم والترغيب في قتالهم أحاديث صحيحة مرفوعة، وقد افترقوا على نحو عشرين فرقة.
انظر: الملل والنحل، للشهرستاني، (١١٤/١)، مقالات الإسلاميين، للأشعري، (١٦٧/١)، والفرق بين الفرق، للبغدادي، ص(٧٢).

(٤) المعتزلة: سموا بذلك لاعتزال واصل بن عطاء (١٣١هـ) حلقة الحسن البصري بعد مخالفته في حكم مرتكب الكبيرة، يجمعهم القول بنفي الصفات الأزلية، =

الإيمان ونقصانه، وأنه مراتب ودرجات، فالإيمان عندهم إذا ذهب بعضه ذهب كله [١].

أما تجويزهم زيادته فمن جهة اختلاف الناس في وجوب التكاليف في وقت وحال دون أخرى[٢].

= وهو عندهم التوحيد، وأن كلام الله محدث ومنه أن القرآن مخلوق، ونفي القدر، وأن العباد خالقون لأفعالهم، ووجوب إنفاذ الوعد والوعيد، وهو عندهم العدل، و منه وجوب فعل الصلاح والأصلح على الله تعالى، وأن مرتكب الكبيرة يخرج من الإيمان ولا يدخل الكفر، وهو المنزلة بين المنزلتين، وإذا مات من غير توبة حكموا بتخليده في النار، وقالوا بوجوب التحسين والتقبيح العقليين أي قبل ورود الشرع. وهم أكثر من اثنتي عشرة فرقة.

انظر: الملل والنحل، (٤٣/١) وما بعدها، الفرق بين الفرق، ص(١١٤) وما بعدها.

(١) قواعد في بيان حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة، عادل بن محمد بن علي الشيخاني، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ص(٢٤٧).

(٢) انظر: التبصير في معالم الدين، محمد بن جرير بن يزيد الطبري، تحقيق وتعليق: علي بن عبدالعزيز بن علي الشبل، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، ص(١٩٥).

وقول الخوارج قالت به الإباضية كما في جامع البسيوي الإباضي، نشر وزارة التراث والثقافة عمان، (٢٣٧/١-٢٣٩)، ومشارق أنوار العقول، لابن حميد =

٢) **المرجئة**[1]: القائلون بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، واعتبروا زيادته في الآيات والأحاديث تجدد أمثاله[2].

□ **الأمر الثاني: إثبات صفة المحبة لله تعالى:**

أخذاً من قوله ﷺ : « وأحب إلى الله » فهنا أثبت ﷺ لله ﷻ محبّة حقيقية تليق بجلاله تعالى، كما يقال ذلك في سائر الصفات.

والمحبة من صفات الله ﷻ الثابتة له بالكتاب والسنة وإجماع السلف، قال تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: ٥٤].

= السالمي، تحقيق: الخليلي، نشر وزارة الثقافة بعمان، (١/٣١٢).

وانظر: متشابه القرآن، لعبدالجبار المعتزلي، تصوير لبنان، (١/٣١٢).

(١) المرجئة: هم الذين أرجؤوا العمل عن الإيمان، وزعموا أن الإيمان هو المعرفة، وهم المرجئة الخالصة، وقالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، والإيمان عندهم شيء واحد، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتفاضل أهله به، وهم نحو اثنتي عشرة فرقة.

انظر: مقالات الإسلاميين، (١/٢١٣)، الملل والنحل، (١/١٣٩)، والفرق بين الفرق، ص(٢٠٢).

(٢) انظر: الإيمان، ص(٢١١-٢٣٤، ٣٨٣، ٣٩٠)، والفرقان بين الحق والباطل، مجموع الفتاوى، (١٣/٥٢)، والإيمان في الأوسط، مجموع الفتاوى، (٧/٥٦٢-٥٧٤).

وأجمع السلف على ثبوت المحبة لله تعالى يُحِبُّ ويُحَبُّ، فيجب إثبات ذلك حقيقة من غير تحريف[١]، ولا تعطيل[٢]، ولا تكييف[٣]، ولا تمثيل[٤] [٥].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: « إن للناس في هذا الأصل العظيم ثلاثة أقوال: أحدها: أن الله تعالى يحِب ويحَب كما قال

---

(١) التحريف: تفسير للنصوص بالمعاني الباطلة التي لا تدل عليها بوجه من الوجوه. انظر: التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه العقيدة الواسطية، للشيخ عبدالرحمن ابن ناصر السعدي، تحقيق وتعليق: أبي محمد أشرف بن عبدالمقصود، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ص(٢٢).

(٢) التعطيل هو: نفي شيءٍ من أسماء الله أو صفاته. انظر: فتح رب البرية بتلخيص الحموية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، كتبها: فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، مكتبة أضواء السلف، ص(١٦٩).

(٣) التكييف: أن تُكيَّف صفات الله وأن يبحث عن كُنْهِهَا. انظر: التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه العقيدة الواسطية، للسعدي، ص(٢٣).

(٤) التمثيل: هو إثبات الصفات لله ممثلاً له بخلقه. المصدرين السابقين.

(٥) لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد، موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد ابن محمد بن قدامة المقدسي، شرح: محمد بن صالح العثيمين، حققه وخرج أحاديثه: أبو محمد أشرف بن عبدالمقصود، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، مكتبة طبرية، الرياض، ص(٥٤).

تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤].

فهو المستحق أن يكون له كمال المحبة دون ما سواه، وهو سبحانه يحب ما أمر به، ويحب عباده المؤمنين، وهذا قول سلف الأمة وأئمتها، وهذا قول أئمة شيوخ المعرفة.

القول الثاني: أنه يستحق أن يحب لكنه لا يحب إلا بمعنى أنه يريد، وهذا قول كثير من المتكلمين ومن وافقهم من الصوفية[(١)].

القول الثالث: أنه لا يحِب، ولا يحَب، وإنما محبة العباد له إرادتهم طاعته، وهذا قول الجهمية[(٢)] ومن وافقهم من متأخري أهل

---

(١) الصوفية: سموا بذلك نسبة إلى اللبسة الظاهرة وهي الصوف غالباً، ولقد مر التصوف بعدة مراحل، فقد كان في أوله زهداً في الدنيا وانقطاعاً لعبادة الله ﷻ، ثم صار حركات ومظاهر خالية من الروح والعبادة، ثم صار إلحاداً وخروجاً عن دين الله، فقالوا بالحلول ووحدة الوجود، وإباحة المحرمات، وترك الواجبات، وعلم الباطن. انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص(٨٧، ١١٥)، المرشد الأمين إلى اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص(١١٢، ١٣٠).

(٢) الجهمية: هم أصحاب أبي محرز جهم بن صفوان السمرقندي، تلميذ الجعد بن درهم، قتله سالم بن أحوز المازني سنة ١٢٧هـ، وقيل: ١٢٨هـ، قال بفناء الجنة والنار، وأن الإيمان هو المعرفة والكفر هو الجهل فقط. وقال بالجبر المحض، وأن القرآن مخلوق. انظر: مقالات الإسلاميين، (١/٢٧٩، ٢٨٠)، والملل والنحل للشهرستاني، (١/٨٦-٨٨)، والفرق بين الفرق لعبدالقاهر البغدادي،

الكلام والرازي[١] [٢].

وقد يحاولون إيجاد مسوغ لهذا التصرف حيث يزعمون: أن المحبة لا تكون إلا بين متناسبين.

وبهذه الشبهة الفاسدة ردوا صفة من صفات الله تعالى الثابتة له[٣]. وتوجب للمحب يدرك محبوبه فرحاً ولذة وسروراً إلى آخر ما هنالك من الثرثرة العقيمة التي نعرفها لأهل الكلام.

والجواب عن هذه الشبهة الواهية: أن ما ذكروه من لوازم (محبة) المخلوق التي تعرف حقيقتها وحقيقة صاحبها، لا تلزم

ص(٢١١-٢١٢)، ولسان الميزان، لابن حجر العسقلاني، (١٤٢/٢).

(١) الرازي: هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبدالله فخر الدين الرازي، ويقال له: ابن خطيب الري، ولد في الري سنة ٥٤٤هـ، من كتبه: «مفاتيح الغيب»، و«تفسير القرآن الكريم»، و«معالم أصول الدين»، و«أساس التقديس» وغيرها، توفي في هراة سنة ٦٠٦هـ. انظر: البداية والنهاية، (٥٣/١٣، ٥٤)، الأعلام للزركلي، (٣١٣/٦)، وطبقات الشافعية، (٨١/٨-٩٦).

(٢) شرح العقيدة الأصفهانية، لابن تيمية، قدم له وعرف به: حسنين محمد مخلوف، دار الكتب الحديثة، ص(١١-١٢).

(٣) الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية، زيد بن عبدالعزيز بن فياض، ط٣، ١٤١٤هـ، دار الوطن، الرياض، ص(٨٤).

(محبة) الله الذي ليس كمثله شيء، الذي لا نحيط به علماً ذاتاً وصفةً سبحانه ما أحلمه ؟! يسمع خوض الخائضين وحذلقة المتحذلقين ثم يمهلهم، ولا يعاجلهم لعلهم يتوبون[1].

وأما الرد على قولهم: إن المحبة لا تكون إلا بين متناسبين، فنقول:

«المناسبة» لفظ مجمل فإنه قد يراد بها التولد والقرابة فيقال: هذا نسيب فلان ويناسبه، إذا كان بينهم قرابة مستندة إلى الولادة والآدمية، والله ﷻ منزّه من ذلك، ويراد بها المماثلة فيقال: هذا يناسب هذا أي مماثله، والله سبحانه أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، ويراد بها الموافقة في معنى من المعاني، وضدها المخالفة.

والمناسبة بهذا الاعتبار ثابتة، فإن أولياء الله تعالى يوافقونه فيما يأمر به فيفعلونه وفيما يحبه فيحبونه، وفيما نهى عنه فيتركونه، وفيما يعطيه فيصيبونه، والله وتر يحب الوتر، جميل يحب الجمال، عليم يحب العلم، نظيف يحب النظافة، محسن يحب المحسنين، مقسط

---

(١) الصفات الإلهية من الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه، د/ محمد أمان بن علي الجامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ص(٢٨٢).

يحب المقسطين، إلى غير ذلك من المعاني، بل هو سبحانه يفرح بتوبة التائب أعظم من فرح الفاقد لراحلته عليها طعامه وشرابه في الأرض الهالكة إذا وجدها بعد اليأس، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا براحلته كما ثبت ذلك في الصحاح عن النبي ﷺ ، فإذا أريد بالمناسبة هذا وأمثاله فهذه المناسبة حق وهي من صفات الكمال، فإن من يحب صفات الكمال أكمل ممن لا فرق عنده بين صفات النقص والكمال، وإذا قدر موجودان أحدهما يحب العلم والصدق والعدل والإحسان ونحو ذلك، والآخر لا فرق عنده بين هذه الأمور وبين الجهل والكذب والظلم ونحو ذلك لا يحب هذا ولا يبغض هذا، كان الذي يحب تلك الأمور أكمل من هذا » [١].

المبحث الثاني: قوله ﷺ: (احرص على ما ينفعك واستعن بالله):

قوله ﷺ : «احرص على ما ينفعك» هذه الكلمة الجامعة من النبي ﷺ يجب على الإنسان أن يجعلها نبراساً له في عمله الديني والدنيوي.

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل، لابن تيمية، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، (٥/٢٢٤-٢٢٥).

فالحرص: يعني بذل الجهد لنيل ما ينفع من أمر الدين أو الدنيا.

وأفعال العباد بحسب السَّبْر والتَّقسيم لا تخلو من أربع حالات:

١- نافعة، وهذه مأمور بها.

٢- ضارة، وهذه محذر منها.

٣- فيها نفع وضرر.

٤- لا نفع فيها ولا ضرر، وهذه لا يتعلق بها أمر ولا نهي، لكن الغالب أن لا تقع إلا وسيلة إلى ما فيه أمر أو نهي، فتأخذ حكم الغاية؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد.

فالأمر لا يخلو من نفع أو ضرر؛ إما لذاته أو لغيره، فحديثنا العام قد لا يكون فيه نفع ولا ضرر، لكن قد يتكلم الإنسان، ويتحدث لأجل إدخال السرور على غيره فيكون نفعاً ولا يمكن أن نجد شيئاً من الأمور والحوادث ليس فيها نفع ولا ضرر؛ إما ذاتي، أو عارض؛ إنما ذكرناه لأجل تمام السبر والتقسيم.

والعاقل يشح بوقته أن يصرفه فيما لا نفع فيه ولا ضرر، قال النبي ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو

ليصمت »[١].

وفي قول النبي ﷺ : « احرص على ما ينفعك » دليل على وجوب الابتعاد عن الضار؛ لأن الابتعاد عنه انتفاع وسلامة[٢].

وفي قوله ﷺ : « واستعن بالله » الواو تقتضي الجمع، فتكون الاستعانة مقرونة بالحرص، والحرص سابق على الفعل؛ فلا بد أن تكون الاستعانة مقارنة للفعل من أوله[٣].

وهي بمعنى: اطلب من الله المعونة على العبادة وجميع أمورك، كأن تقول: عند شروعك بالعمل: اللهم أعني، أو لا حول ولا قوة إلا بالله، أو بلسان الحال وهي أن تشعر قلبك أنك محتاج إلى الله ﷻ أن يعينك على هذا العمل، أو طلب العون بها جميعاً، والغالب أن من استعان بلسان المقال فقد استعان بلسان الحال[٤].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب (١) الإيمان، باب (١٩) الحث على إكرام الجار، (٦٨/١). وأخرجه البخاري في كتاب (٧٨) الأدب، باب (٨٤) حق الضيف، (فتح الباري ٥٣١/١٠).

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد، (٣٦٧/٢-٣٦٨).

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: المصدر السابق، وتحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد، عبدالهادي بن محمد بن عبدالهادي البكري البجيلي، تحقيق ودراسة: أبي أسامة حسن بن علي =

☐ **والاستعانة لغة:**

مصدر استعان وهو من العون بمعنى المعاونة والمظاهرة على الشيء، يقال فلان عوني أي معيني وقد أعنته، والاستعانة طلب العون، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥].

وَالعَوْنُ: الظهير على الأمر، الواحد والاثنان والجمع والمؤنث فيه سواء. وقد حكي في تكسيره أعوان، والعرب تقول: إذا جاءت السَّنَةُ جاء معها أعوانها، يعنون بالسَّنَةِ: الجدب. وبالأعوان: الجراد والذئاب والأمراض، وتقول: أعنته إعانة واستعنته واستعنت به فأعانني وتعاونوا على واعتونوا: أعان بعضهم بعضاً وتعاونًا: أعان بعضنا بعضا، والمعونة: الإعانة، ورجل معوان حسن المعونة، وكثير المعونة للناس وكل شيء أعانك فهو عون لك كالصوم عون على العبادة (١).

= ابن حسن العواجي، دار أضواء السلف، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، (٤٩٧/٢).

(١) لسان العرب، لابن منظور، (٢٩٨/١٣-٢٩٩). وانظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، القاهرة، ١٩٨٢م، (٢١٦٨/٦-٢١٦٩)، والمفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، ط٤، ١٤٢٦هـ، ص(٣٥٦).

□ والاستعانة اصطلاحاً:

عرفها ابن تيمية ﷺ بقوله: « الاستعانة: طلب العون من الله والمخلوق يطلب منه من هذه الأمور ما يقدر عليه » (١).

وعرفها الإمام محمد بن عبدالوهاب بقوله: « سؤال الله الإعانة وهو التوكل والتبري من الحول والقوة » (٢).

وجاء في تفسير السعدي أن الاستعانة هي: « الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع، ودفع المضار مع الثقة به في تحصيل ذلك» (٣).

ويؤكد هذا التعريف قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

هذه الآية العظيمة التي يتلوها المسلم في كل ركعة من ركعات صلواته، وهي آية من سورة الفاتحة التي هي « أعظم السور في

---

(١) مجموع الفتاوى، (١/١٠٣).

(٢) تفسير الفاتحة، محمد بن عبدالوهاب، مكتبة الحرمين، الرياض، ط٣، ١٤٠٩هـ، ص(٥٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، دار الصفا بالزقازيق، (١/١٥).

القرآن »[١].

ومعنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نخصك وحدك يا إلهنا بالعبادة والاستعانة، وذلك لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، فإنه يقول: نعبدك ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك، أي نوحدك ونطيعك خاضعين، ونطلب منك وحدك المعونة على عبادتك وعلى جميع أمورنا[٢].

« والقيام بعبادة الله تعالى والاستعانة به هما الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشرور فلا سبيل إلى النجاة إلا القيام بهما، وإنما تكون العبادة عبادة إذا كانت مأخوذة عن رسول الله ﷺ مقصوداً بها وجه الله، فبهذين الأمرين تكون عبادة، وذكر الاستعانة

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري، كتاب (٦٥) التفسير، باب (١) ما جاء في الفاتحة. انظر: فتح الباري (١٥٦/٨).

(٢) انظر: معالم التنزيل، للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي، ضبطه وصححه: عبدالسلام محمد علي الشاهين، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ص(٢٩٨)، وتفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، كتب هوامشه وضبطه: حسين بن إبراهيم زهران، ط١، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، (٤٢/١).

بعد العبادة مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عبادته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر واجتناب النواهي »[١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

« من ظن أنه يطيع الله بلا معونة، كما يزعم القدرية[٢]

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (١/١٥).

(٢) القدرية: هم الذين أنكروا علم الله بالأفعال قبل وقوعها، وأنه لم يقدرها، لذا عرف اللالكائي القدري بقوله: « القدري الذي يقول إن الله لم يخلق الشيء حتى عمل به ». وسميت القدرية بهذا الاسم؛ لإنكارهم القدر، وقيل لقولهم بقدرة الناس على أكسابهم.
وبدعة القدرية مركبة من أمرين:
الأول: إنكار علم الله السابق للحوادث. الثاني: أن العبد هو الذي أوجد فعله.
ولكن العلماء ذكروا أن هذا المذهب انقرض، والقدرية اليوم مطبقون على أن الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها، وإنما خالفوا السلف في زعمهم بأن أفعال العباد مقدورة لهم وواقعة منهم على جهة الاستقلال.
وقد تبنت تعاليمها وشرحتها وتوسعت فيها المعتزلة لذا يطلق على المعتزلة القدرية.
انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، مج٢ (٧٧٦/٤)، شرح النووي على صحيح مسلم، (١٥٤/١)، الفرق بين الفرق، ص(١١٥)، جامع العلوم والحكم، ص(٧٦)، مقدمة شرح أصول السنة، (٢٥/١)، فتح الباري، (١١٩/١)،

والمجوسية[١]، فقد جحد قدرة الله التامة ومشيئته النافذة، وخلقه لكل شيء، ومن ظن أنه إذا أعين على ما يريد، ويسر له ذلك كان محموداً سواء وافق الأمر الشرعي أو خالفه، فقد جحد دين الله وكذب بكتبه ورسله ووعده ووعيده، واستحق من غضبه وعقابه أعظم ممَّا يستحق الأول » [٢].

فعلى العبد في حال فعله السبب: « أن يستعين بالله وحده دون كل ما سواه، ليتم له سببه وينفعه، فيكون اعتماده على الله تعالى في

تاريخ الجهمية والمعتزلة، جمال الدين القاسمي، ص(٧١)، والمعتزلة وأصولهم الخمسة، عواد بن عبدالله المعتق، ط٣، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م، مكتبة الرشد، الرياض، ص(٤٠).

(١) المجوسية: هم الذين يقولون بأصلين اثنين مدبرين يقتسمان الخير والشر، والنفع والضر، أحدهما: النور، والآخر: الظلمة، ويسمى الأول: يزدان، والآخر: أهرمن، وهم قسمان:

١-المجوس الأصلية: وهؤلاء زعموا أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين، بل النور أزلي والظلمة محدثة.

٢-التسوية: القائلون بإلهين أزليين، ومن أشهر فرق المجوس، الكيومرتية، والزروانية، والمسخية، والخرمديتية، وكل هؤلاء يعبدون النار ويقدسونها.

انظر: الملل والنحل، للشهرستاني، (١/٢٣٣-٢٤٤).

(٢) مجموع الفتاوى، (٨/٧٤).

ذلك؛ لأنه تعالى هو الذي خلق السَّبَب والمُسبَّب، ولا ينفعه سبب إلا إذا نفعه الله به، فيكون اعتماده في فعل السبب على الله تعالى، ففعل السبب سنة، والتوكل على الله توحيد، فإذا جمع بينهما؛ تم له مراده بإذن الله » [١].

والاستعانة تجمع أصلين:

١- الثقة بالله.

٢- الاعتماد عليه. [٢]

وقد سوى ابن القيم بين التوكل والاستعانة وقال في تعريفهما: « التوكل والاستعانة، حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله تعالى، والإيمان بتفرده بالخلق، والتدبير والضرر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه الناس فيوجب له هذا اعتماداً عليه (واستعانة به) وتفويضاً إليه، وطمأنينة به، وثقة به، ويقيناً بكتابته لما توكل عليه فيه واستعان به عليه، وأنه ملي به، ولا

---

(١) فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد، عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب، تحقيق: د/الوليد بن عبدالرحمن بن محمد آل فريان، دار الصميعي، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ، (٧٦٩/٢).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم، (٧٥/١).

يكون إلا بمشيئته شاء الناس ذلك أم أبوه »[(١)].

والإنسان محتاج إلى الله في كل حال، قال ابن رجب رحمه الله : «العبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها في الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل ، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه ... ، ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكله الله إلى من استعان به، فصار مخذولاً ... ، وهو كذلك في أمور الدنيا عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه جميعاً إلا الله عز وجل ، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله الله فهو المخذول، وهذا هو تحقيق معنى قول العبد: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، فإن المعنى لا تحول للعبد من حال إلى حال ولا قوة له على ذلك إلا بالله. وهذه كلمة عظيمة وصفها النبي ﷺ بأنها كنز من كنوز الجنة »[(٢)]؛ إذ قال -عليه الصلاة والسلام- لأحد الصحابة: « قل لا

---

(١) المصدر السابق، (١/٨٢).

(٢) جامع العلوم والحكم، ص(١٦٨).

حول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة »[(١)].

يقول ابن حجر: « تسمى هذه الكلمة كنزاً؛ لأنها كالكنز في نفاسته، وصيانته عن أعين الناس ... لأن معنى (لا حول) لا تحويل للعبد عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة له على طاعة الله إلا بتوفيق الله ... ، وحاصله أن المراد أنها من ذخائر الجنة، أو من محصلات نفائس الجنة »[(٢)].

ويقول النووي ﷺ: « قال العلماء: سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتفويض إلى الله تعالى، واعتراف بالإذعان له ... »[(٣)].

فهي كلمة عظيمة تتضمن اعتراف العبد بأنه لا تحول له من حال إلى حال، ولا قوة له على ذلك إلا بإعانة الله وحده، فالاستعانة لا تطلب من أي إنسان، إلا عند الضرورة، وفيما يقدر عليه فقط، وإذا اضطر العبد للاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه، فعليه أن يجعل ذلك وسيلة وسبباً، لا ركناً يعتمد عليه، وإنما الركن الأصيل الذي

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب (٨٠) الدعوات، باب (٥٠) الدعاء إذا علا عقبة، فتح الباري، (١١/١٨٧) ح(٦٣٨٤).

(٢) فتح الباري، (١١/١٨٨، ٥٠٠-٥٠١).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، (١٧/٢٦).

يعتمد عليه في الدعاء والسؤال والاستعانة هو الله وحده لا شريك له، كما أن على العبد إذا احتاج إلى الاستعانة بالمخلوق كحمل صندوق مثلاً، ألّا يشعر نفسه أن هذه الاستعانة كاستعانته بالخالق، وإنما عليه أن يشعر أنها كمعونة بعض أعضائه لبعض، كما لو عجز عن حمل شيء بيد واحدة فإنه يستعين على حمله باليد الأخرى(١).

وعلى هذا فالاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه، كالاستعانة ببعض الأعضاء، فلا ينافي ذلك قوله ﷺ : « فاستعن بالله »» فإذا وقع العبد في مكروه وشدة فلا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله بعد الاستعانة بالله تعالى، ولا يكون هذا شكوى للمخلوق، فإنه من الأمور العادية، التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف عليه السلام للذي ظن أنه ناج من الفتيين(٢):﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢]، والمصيبة العظيمة والخطر الجسيم فيمن يسأل أو يستعين بأصحاب القبور، أو غيرهم ممن يسمون بالأولياء والصالحين، سواء أكانوا أمواتاً أم أحياء،

---

(١) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد، (٢/٣٦٨-٣٦٩)، وشرح رياض الصالحين، (٢/٤٥٢-٤٥٣)، وجامع العلوم والحكم، لابن رجب، ص(١٦٨).

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٢/٤٦١).

فيسألهم ويستعين بهم فيما لا يقدرون عليه من جلب نفع أو دفع ضر أو رزق ولد، أو دخول الجنة، أو النجاة من النار، ونحو ذلك مما هو واقع في بعض البلاد، فإن هذا شرك بالله تعالى، إذ هو وحده القادر على كل شيء، وما دونه من نبي أو ولي لا يملك لنفسه جلب الخير أو دفع الشر إلا بإذنه ﷻ، ولهذا قال الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف:١٨٨].

فهذه الآية تبين جهل من يقصد النبي ﷺ ويدعوه لحصول نفع، أو دفع ضر، فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينفع من لم ينفعه الله، ولا يدفع الضر عمن لم يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله، ويقول ﷻ : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ [الحج:١١-١٣].

هذه صفة كل مدعو ومعبود من دون الله، فإنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرّاً ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ الذي بلغ في

البعد حد النهاية، حيث أعرض عن عبادة النافع الضار، الغني المغني، وأقبل على عبادة مخلوق مثله أو دونه ليس بيده من الأمر شيء، بل هو إلى حصول ضد مقصوده أقرب، ولهذا قال: ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ﴾، فإن ضرره في العقل و البدن، والدنيا والآخرة معلوم، ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ أي: لبئس هذا المعبود والقرين الملازم على صحبته، فإن المقصود من المولى والعشير حصول النفع، ودفع الضرر، فإذا لم يحصل شيء من هذا إنه مذموم ملوم[(١)].

وجاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ : « ... إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله »[(٢)].

يقول ابن دقيق العيد[(٣)] في شرح هذا الجزء من الحديث:

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٣/٣٤٨-٣٤٩).

(٢) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٥٩)، ح(٢٥١٦). والإمام أحمد، (١/٢٩٣، ٣٠٣). وأخرجه الطبراني في الكبير، ح(١٢٩٨). وأبو نعيم في الحلية، (١/٣١٤). وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع الصغير، (٢/١٣١٨) ح(٧٩٥٧).

(٣) ابن دقيق العيد: هو الإمام محمد بن علي بن وهب المعروف بابن دقيق العيد، ولد في عام ٦٢٥هـ، بناحية ينبع على البحر الأحمر، قاضي من أكابر العلماء =

«أرشده إلى التوكل على مولاه وألّا يتخذ ربّاً سواه، ولا يتعلق بغيره في جميع أموره ما قل منها وما كثر، وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، فبقدر ما يركن الشخص إلى غير الله بطلبه أو بقلبه أو بأمله فقد أعرض عن ربه بمن لا يضره ولا ينفعه، وكذلك الخوف من غير الله »[(١)].

فالمسلم مطالب بالاستعانة بالله في فعل المأمورات، واجتناب المنهيات.

يقول ابن تيمية عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]:

« وكل واحد من العبادة والاستعانة دعاء، وإذا كان قد فرض علينا أن نناجيه وندعوه بهاتين الكلمتين في صلاة، فمعلوم أن ذلك يقتضي أنه فرض علينا أن نعبده وأن نستعينه ... ، كما أمر بهما في قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، والأمر له أمر لأمته، وأمره بذلك في أم القرآن، وفي غيرها، لأمته؛ ليكون فعلهم ذلك طاعة

= بالأصول، مجتهد. انظر: الأعلام، (٢٨٣/٦).

(١) شرح متن الأربعين النووية، قدم له وعلق عليه: أسامة عبدالكريم الرفاعي، مكتبة الغزالي، دمشق، ط٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، ص(١٠٧).

وامتثالاً لأمره، لا تقدماً بين يدي الله ورسوله...، وإلى هذين الأصلين كان النبي ﷺ يقصد في عبادته وأذكاره ومناجاته، مثل قوله في الأضحية: « اللهم هذا منك ولك وإليك »[1]؛ فإن قوله: « منك » هو معنى التوكل والاستعانة، وقوله: « لك » هو معنى العبادة »[2].

وقال في موضع آخر: « فإن الإخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة، كما أمرنا أن نقول في صلاتنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فهاتان الكلمتان قد قيل إنهما تجمعان معاني الكتب المنزلة من السماء »[3].

ويذكر ابن القيم رحمه الله أن آية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ «متضمنة لأجلّ الغايات وأفضل الوسائل، فأجلّ الغايات عبوديته، وأفضل الوسائل إعانته، فلا معبود يستحق العبادة إلا هو، ولا معين على عبادته غيره، فعبادته أعلى الغايات، وإعانته أجل الوسائل ... ، وقد

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الضحايا، باب ما يستحب من الضحايا، ح(٢٧٩٥).

(٢) دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام، لابن تيمية، تحقيق: د. محمد السيد الجليند، ط٢، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، (١/١٧٣-١٧٤)، وانظر: منهاج السنة، (٤/٢٤٤).

(٣) دقائق التفسير، لابن تيمية، (١/٢١٢).

اشتملت هذه الكلمة على نوعي التوحيد، وهما توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وتضمنت التعبد باسم الرب، واسم الله، فهو يعبد بألوهيته ويستعان بربوبيته، ويهدي إلى الصراط المستقيم برحمته ...، وهو المنفرد بإعطاء ذلك كله لا يعين على عبادته سواه ولا يهدي سواه »[(١)].

كما أن العبد مطالب بالصبر والاستعانة بالله تعالى عند وقوع المصائب والابتلاءات، ولهذا قال يعقوب ﷺ عند وقوع مصيبته: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف:١٨]، ولما قال أهل الإفك ما قالوا في عائشة قالت: « و الله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾، فبرأها الله مما قالوا »[(٢)].

وعندما هدد فرعون موسى وقومه: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٨].

---

(١) كتاب الصلاة وحكم تاركها، لابن القيم، ص(١٠٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب (٢) الشهادات، باب (١٥) تعديل النساء بعضهن بعضاً، (فتح الباري ٥/٢٧٢) ح(٢٦٦١).

فجاء الأمر على خلاف ما أراد فرعون؛ إذ أعزهم الله وأذله، وأرغم أنفه، وأغرقه وجنوده(١).

وأخبر الله تعالى عن الرسول ﷺ أنه لما كذبه قومه: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١١٢]، أي: والله المستعان عليكم فيما تقولون وتفترون من التكذيب والإفك(٢).

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يدعو في قنوته بقوله: « اللهم إنا نستعينك، ونؤمن بك ونتوكل عليك »(٣).

ولما بشَّر الرسول ﷺ عثمان بن عفان بالجنة، مع بلوى تصيبه، قال ﷺ : « اللهم. صبراً، أو الله المستعان »(٤).

ولهذا كان النبي ﷺ يعلم أصحابه خطبة الحاجة، وهي: « إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ... » الحديث(٥).

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، (٢/٣٨١-٣٨٢).

(٢) انظر: المصدر السابق، (٣/٣٢٤).

(٣) رواه ابن أبي شيبة، (٢/٦١) و(١٢/٤٨)، وصححه الألباني. انظر: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، (٢/١٧٠) ح(٤٢٨).

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب (٤٤) فضائل الصحابة، باب (٣) من فضائل عثمان بن عفان ﷺ، (٤/١٨٦٧) ح(٢٤٠٣).

(٥) رواه أبو داود، كتاب النكاح، باب في خطبة النكاح، ح(٢١١٨). والترمذي في =

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « وتستحب هذه الخطبة في افتتاح مجالس التعليم، والوعظ والمجادلة، وليست خاصة بالنكاح»[1].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده، وقال: « يا معاذ إني والله لأحبك فلا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك »[2].

وكان النبي ﷺ يدعو ويقول: « رب أعني، ولا تُعن عليَّ » الحديث[3].

= النكاح، ح(١١٠٥). والنسائي في الجمعة، باب كيف الخطبة، (١٠٥/٣)، وابن ماجه في النكاح، باب خطبة النكاح، ح(١٨٩٢). وانظر: صحيح ابن ماجه، (٣١٩/١) ح(١٥٣).

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، (٢٨٧/١٨).

(٢) رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب الاستغفار، ح(١٥٢٢). والنسائي في السهو، باب نوع آخر من الدعاء، (٥٣/٣). وأحمد في المسند، (٢٤٥/٥). وانظر: صحيح الكلم الطيب، ح(١١٥)، وصحيح الجامع الصغير، (١٣٢٠/٢) ح(٣٠٦٣).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل إذا سلم، ح(١٥١٠). والترمذي في كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ ، ح(٣٥٤٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وانظر: صحيح سنن الترمذي، (٤٦١/٣) ح(٣٥٥١). وصحيح سنن ابن ماجه، (٣٢٤/٢) ح(٣٨٣٠).

ولقد لاحظنا فيما سبق أن الإمام ابن القيم سوى بين التوكل والاستعانة، وذلك لأن كُلا منهما يجمع أصلين.

فالاستعانة كما رأينا تجمع بين أصلين وهما:

أ - الثقة بالله.   ب - الاعتماد عليه.

والتوكل أيضاً يلتئم من هذين الأصلين (الثقة بالله والاعتماد عليه).

وقد اقترن التوكل (الاستعانة) بالعبادة في القرآن الكريم في مواضع عديدة منها:

١- قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

٣- قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

٤- قوله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد:٣٠].

٥- قوله ﷻ -حكاية عن المؤمنين- : ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة:٤].

٦- وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل:٨-٩].

فهذه ستة مواضع جمع فيها القرآن الكريم بين الأصلين وهما: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أي بين العبادة والاستعانة أو ما في معناها وهو التوكل[1].

ومن الملاحظ أن العبادة مقدمة على الاستعانة، ولذلك أسباب عديدة أشار إليها ابن القيم وغيره من العلماء، فقال ابن القيم: «وتقديم العبادة على الاستعانة لما يلي:

١- لأن العبادة غاية العباد التي خلقوا لها؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

٢- لأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ متعلق بألوهيته سبحانه، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ متعلق بربوبيته.

٣- لأن تقديم العبادة على الاستعانة يتناسب مع تقديم اسم «الله» على لفظ «الرب» المذكورين في أول السورة.

حيث إن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ قسم الرب، فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى لكونه أولى به، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قسم

---

(١) انظر: مدارج السالكين، (١/٧٥-٧٦).

العبد، فكان من الشطر الذي له، وهو ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ إلى آخر السورة.

٤- لأن العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس، فكل عابد لله عبودية تامة، مستعين، ولا ينعكس الأمر، لأن صاحب الأعراض والشهوات قد يستعين به على شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم، ولهذا كانت قسم المولى ﷻ.

٥- لأن الاستعانة جزء من العبادة من غير عكس (تقدم الكل على الجزء).

٦- لأن الاستعانة طلب منه ﷻ، والعبادة طلب له فقدم ما هو له على ما هو منه.

٧- لأن العبادة لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص، ومن ثم قدم ما هو محض الإخلاص.

٨- لأن العبادة حق الله الذي أوجبه على العبد والاستعانة طلب العون على العبادة، وذلك بيان لصدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه أهم من التعريض لصدقته (فكان ذلك من باب تقديم الأهم على المهم).

٩- لأن العبادة شكر لنعمته عليك، والله يحب أن يشكر، والإعانة

فعله بك وتوفيقه لك، فإن التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سبباً لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة له من الله أعظم، ومن ثم فإن تقديم العبادة تقديمٌ للسبب على المسبب.

١٠-ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لله، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ به والذي له مقدم على ما به؛ لأن ما له متعلق بمحبته ورضاه والذي (يكون) به متعلق بمشيئته وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، إذ الكون كله متعلق بمشيئته كذلك، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار والطاعات والمعاصي، والمتعلق بمحبته طاعاتهم وإيمانهم، فالكفار أهل مشيئته والمؤمنون أهل محبته، ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبداً، وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته[1].

---

(١) انظر: مدارج السالكين، (١/٧٥-٧٧).

وموسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، مجموعة من المختصين، بإشراف: صالح بن عبدالله بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن ملوح، دار الوسيلة، جدة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، (٢/٢٢٩-٢٣٠).

الاستعانة الإيمانية والاستعانة الشركية:

يقول ابن تيمية ﷺ : إن العبد مجبول على أن يقصد شيئاً ويريده ويستعين به بشيء ويعتمد عليه في تحصيل مراده، وهذا المستعان به على قسمين وهما:

القسم الأول: ما يستعان به لنفسه فيكون هو الغاية الذي يعتمد عليه العبد ويتوكل عليه، ويعتضد به، ليس عنده فوقه غاية في الاستعانة.

والقسم الثاني: ما يكون تبعاً لغيره بمنزلة الأعضاء مع القلب، والمال مع المالك، والآلات مع الصانع.

والناظر في أحوال الخلق يجد أن النفس لا بد لها من شيء تثق به، وتعتمد عليه في نيل مطلوبها هو مستعانها سواءً كان ذلك هو الله أم غيره، وإذا كان المستعان غير الله فقد يكون عامّاً وهو الكفر كمن عبد غير الله مطلقاً أو سأل غير الله مطلقاً. وقد يكون خاصاً في المسلمين ممن غلب عليهم حُبُّ المال أو حُبُّ شخص أو حُبُّ الرياسة أو غير ذلك بحيث يعتمد عليها ويستعين بها، وما أكثر ما تستلزم العبادة الاستعانة، وصلاح العبد في عبادة الله واستعانته به، ومضرته وهلاكه وفساده في عبادة غير الله والاستعانة بما سواه،

وتوحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته واستعانته في القرآن كثير جداً؛ بل هو قلب الإيمان، وأول الإسلام وآخره، وهذا هو دين الإسلام العام الذي بُعث به جميع الرسل، فلا يصرف لغير الله شيء من أنواع العبادة والاستعانة، إذ إن أنواع العبادة متعلقة كلها بألوهيته، والاستعانة متعلقة بربوبيته، والله رب العالمين لا إله إلا هو، ولا رب لنا غيره، لا ملك ولا نبي ولا غيره (١).

تقسيم الناس بحسب الاستعانة:

يرى ابن القيم ﷺ أن الناس بحسب العبادة والاستعانة أربعة أقسام:

القسم الأول: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، وهذا أجل الأقسام وأفضلها.

القسم الثاني: أهل الإعراض عن العبادة والاستعانة به في مرضاته إن سأله أحدهم واستعان به، فعلى حظوظه وشهواته لا على مرضاة ربه وحقوقه وهؤلاء شر البرية.

---

(١) انظر: نضرة النعيم، (٢/٢٢٧-٢٢٨)، ومجموع الفتاوى، (١/٣٤-٣٧)، وجامع البيان، للطبري، (١/٢٩٨).

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة أو باستعانة ناقصة وهؤلاء صنفان:

١- القدرية القائلون بأن الله قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل، إذ قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها وتعريف الطريق وإرسال الرسل وتمكينه من الفعل، ولم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها.

٢- من لهم عبادات وأورادٌ، ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، فهؤلاء وأولئك لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير بحسب استعانتهم وتوكلهم، ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم، ولو توكل العبد على الله حق توكله (واستعان به حق استعانته) في إزالة جبل عن مكانه وكان مأموراً بإزالته لأزاله.

القسم الرابع: هم أولئك الذين يشهدون تفرد الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولم يَدُرْ مع ما يحبه ويرضاه، ومع ذلك توكل عليه واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه، فقضيت له وأُسْعِفَ بها سواء أكانت مالاً أو جاهاً عند الخلق، هؤلاء لا عاقبة لهم ولا يعدو ما أُعطوه أن يكون من جنس الملك الظاهر

والأموال التي لا تستلزم الإسلام فضلاً عن الولاية والقرب من الله تعالى[١].

المبحث الثالث: قوله ﷺ: (ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا):

وفي رواية: « ولا تعجزن » النون نون التأكيد الخفيفة.

ففي هذا القول من النبي ﷺ نهي عن العجز وذمّه، والعجز مذموم شرعاً وعقلاً[٢].

والعجز ضد القدرة وهو القصور عن فعل الشيء[٣].

وهو نوعان:

١- تقصير في الأسباب، وعدم الحرص عليها.

٢- تقصير في الاستعانة بالله، وترك تجريدها.[٤]

لذا نهى النبي ﷺ عنه بقوله: « لا تعجز » بعد أمره للمؤمن

---

(١) مدارج السالكين، (١/٧٨-٨٢)، ونضرة النعيم، (٢/٢٣٠-٢٣١).

(٢) فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد، (٢/٧٦٩).

(٣) المفردات، ص(٣٢٥).

(٤) مدارج السالكين، (٣/٥٠١).

بالحرص على ما ينفعه في دنياه وآخرته، ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه: أمره أن يستعين بالله ليجتمع له مقام: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله تعالى ولا يتم إلا بمعونته، فأمره أن يعبده وأن يستعين به، فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله، ضد العاجز، فهذا إرشاد له قبل رجوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده ومصدرها منه ومردها إليه، فإن فاته ما لم يقدَّر له فله حالتان:

الأولى: حالة عجز وهي مفتاح عمل الشيطان فيلقيه العجز إلى «لو» ولا فائدة في «لو» هنا، بل هي مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان، فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا المفتاح.

الثانية: النظر إلى القدر وملاحظته وأنه لو قدر له لم يفته ولم يغلبه عليه أحد، فلم يبق له ههنا أنفع من شهود القدر ومشيئة الرب النافذة التي توجب وجود المقدور، وإذا انتفت امتنع وجوده. فلهذا قال: « قل قدر الله وما شاء فعل » فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين

حالة حصول مطلوبه وحالة فواته [١].

فهذا الحديث العظيم يوجب الإيمان بالقضاء والقدر، وهو الركن السادس من أركان الإيمان، والإيمان به يتضمن الإيمان بمراتبه الأربع وهي:

المرتبة الأولى:

الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيء، الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه تعالى قد علم جميع خلقه قبل أن يخلقهم، وعلم أرزاقهم وأقوالهم وأعمالهم، وجميع حركاتهم وسكناتهم، وإسرارهم وعلانياتهم ومن هو منهم من أهل الجنة، ومن هو منهم من أهل النار، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [الحشر:٢٢]، وقال: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق،١٢].

وقال ﷺ : « إن الله خلق للجنة أهلاً. خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم. وخلق للنار أهلاً. خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم » [٢].

---

(١) شفاء العليل، (٥٩/١). وانظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، (٧٧٣/٢-٧٧٤)، ومدارج السالكين، (٥٠١/٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب (٤٦) القدر، باب (٦) معنى كل مولود يولد =

ولما سئل ﷺ عن أولاد المشركين قال: « الله أعلم بما كانوا عاملين »(١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذا الحديث: « أي الله يعلم من يؤمن منهم ومن يكفر لو بلغوا، ثم إنه جاء في حديث إسناده مقارب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « إذا كان يوم القيامة فإن الله يمتحنهم، ويبعث إليهم رسولاً في عرصة القيامة، فمن أجابه أدخله الجنة، ومن عصاه أدخله النار »، فهنالك يظهر فيهم ما علمه الله سبحانه، ويجزيهم على ما ظهر من العلم، وهو إيمانهم وكفرهم، لا على مجرد العلم »(٢).

المرتبة الثانية:

الإيمان بأن الله تعالى قد كتب جميع ما سبق به علمه أنه كائن،

= على الفطرة ... ، (٤/٢٠٥٠) ح(٢٦٦٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب (٨٢) القدر، باب (٣) الله أعلم بما كانوا عاملين، (فتح الباري ٤٩٣/١١) ح(٦٥٩٧). ومسلم، كتاب (٤٦) القدر، باب (٦) معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال المشركين الكفار وأطفال المسلمين، ح(٢٦٥٩).

(٢) مجموع الفتاوى، (٤/٢٤٦).

وفي ضمن ذلك الإيمان باللوح والقلم، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:١٢]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج:٧٠]. وقال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر:١١].

وقال ﷺ : « ما من نفس منفوسةٍ، إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار. وإلا وقد كتبت شقيةً أو سعيدةً »[١].

المرتبة الثالثة:

الإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وهما متلازمتان من جهة ما كان وما سيكون، ولا ملازمة بينهما من جهة ما لم يكن ولا هو كائن، فما شاء الله تعالى فهو كائن بقدرته لا محالة، وما لم يشأ الله تعالى لم يكن لعدم مشيئة الله إياه لا لعدم قدرة الله عليه، تعالى الله عن ذلك، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

ومن أدلة هذه المرتبة: قوله ـ عز من قائل ـ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب (٦٥) التفسير، باب تفسير سورة (والليل إذا يغشى)، (فتح الباري ٧٠٩/٨) ح(٤٩٤٨). ومسلم، كتاب (٤٦) القدر، باب (١) كيفية خلق الآدمي ... ، (٢٠٣٩/٤) ح(٢٦٤٦).

يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[الإنسان:٣٠]، وقوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الأنعام:٣٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢].

وقوله ﷺ : « إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن. كقلبٍ واحد. يصرفه حيث يشاء »، ثم قال رسول الله ﷺ : «اللهم. مصرف القلوب. صرف قلوبنا على طاعتك »[1].

المرتبة الرابعة:

الإيمان بأن الله تعالى خالق كل شيء وأنه ما من ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا بينهما إلا والله خالقها وخالق حركاتها وسكناتها، لا خالق غيره ولا رب سواه.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر:٦٢].

وقال سبحانه: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر:٣].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب (٤٦) القدر، باب (٣) تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، ح(٢٦٥٤).

هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الروم:٤٠].

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٦].

وعن حذيفة ﷺ مرفوعاً: «إن الله يصنع كل صانع وصنعته»[١].

والإيمان بالقدر نظام التوحيد، كما أن الإيمان بالأسباب التي توصل إلى خيره وتحجز عن شره هي نظام الشرع، ولا ينتظم أمر الدين ويستقيم إلا لمن آمن بالقدر وامتثل للشرع، فمن نفى القدر زاعماً منافاته للشرع فقد عطل الله عن علمه وقدرته، وجعل العبد مستقلاً بأفعاله خالقاً لها، فأثبت مع الله تعالى خالقاً، بل أثبت أن جميع المخلوقين خالقون، ومن أثبت القدر محتجّاً به على الشرع، نافياً عن العبد قدرته واختياره فقد نسب الله تعالى إلى الظلم، وليعلم أن الله ﷻ الذي أمرنا بالإيمان بالقضاء والقدر، أمرنا بالعمل والأخذ بالأسباب، فقال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة:١٠٥]، وقال الرسول ﷺ : « اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له »[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد، ص(٧٣)، وابن أبي عاصم في السنة، (٣٥٧، ٣٥٨)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، (١٨١/٤) ح(١٦٣٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب (٤٦) القدر، باب (١) كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، ح(٢٦٤٨).

وفي هذا رد على المتخاذلين، المستسلمين لأهوائهم وشهواتهم، محتجين بتقدير الله تعالى ذلك عليهم، فعلى المسلم أن يحرص على حسن الاتباع لما جاء به الرسول ﷺ، مع إخلاص العمل لله تعالى، وسلامة العقيدة، والاجتهاد بالأخذ بالأسباب، والسعي وبذل الجهد، فمن ترك الأسباب محتجاً بالقدر فقد عصى الله تعالى وخالف شرعه. والمؤمنون حقّاً يؤمنون بالقدر خيره وشره، وأن الله خالق أفعال العباد، وينقادون للشرع أمره ونهيه، ويحكمونه في أنفسهم سراً وجهراً، وأن للعباد قدرة على أعمالهم، ولهم مشيئة وإرادة، وأفعالهم تضاف إليهم حقيقة، وبحسبها كلفوا، وعليها يثابون ويعاقبون، ولكنهم لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليها، ولا يشاؤون إلا أن يشاء الله(١).

قال أبو بكر محمد بن الحسين الآجري: « قد جرى القلم بأمره ﷻ في اللوح المحفوظ بما يكون من بر أو فاجر، يثنى على من عمل بطاعته من عبيده، ويضيف العمل إلى العباد ويعدهم عليه الجزاء العظيم، ولولا توفيقه لهم ما عملوا ما استوجبوا به منه الجزاء ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١]. وكذا ذم قوماً عملوا بمعصيته، وتوعدهم على العمل بها وأضاف العمل إليهم بما

(١) انظر: مجموع الفتاوى، (٨/٤٤٩، ٤٥٩)، وأعلام السنة المنشورة، ص (١٣٩-١٤١).

عملوا، وذلك بمقدور جرى عليهم، ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [النحل:٩٣] ». [١]

وثبت في الحديث الصحيح أن رجلاً قال: يا رسول الله! فيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟ قال: « لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير » قال: ففيم العمل؟ قال: « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » [٢].

فلا بد من الإيمان بأن كل ما يصيب العبد مما يضره وينفعه في دنياه فهو مقدر عليه، وأنه لا يمكن أن يصيبه ما لم يكتب له ولم يقدر عليه، ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعاً، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١]، يعني: أن من أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب، واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه ويقيناً صادقاً، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيراً منه، روى ابن كثير عن ابن عباس أنه قال ـ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ ـ يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم

---

(١) الشريعة، ص(١٥٢).

(٢) سبق تخريجه، ص(١٧٦).

أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه[١].

يقول ابن دقيق العيد: « هذا هو الإيمان بالقدر، والإيمان به واجب، خيره وشره، وإذا تيقن المؤمن هذا، فما فائدة سؤال غير الله والاستعانة به » [٢].

ومما يجب أن يعلم أن القدر السابق لا يمنع العمل، ولا يوجب الاتكال عليه، بل يوجب الجد والاجتهاد، والحرص على العمل الصالح وحسن الاتباع، ولهذا لما أخبر النبي ﷺ أصحابه بسبق المقادير وجريانها وجفوف القلم بها، قال بعضهم: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فقال ﷺ : «اعملوا فكل ميسر»[٣]، ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل:٥-٧].

« فالله ﷻ قدر المقادير وهيأ لها أسباباً، وهو الحكيم بما نصبه من الأسباب في المعاش والمعاد، وقد يسر كلّاً من خلقه لما خلقه له في الدنيا والآخرة، فهو مهيأ له ميسر له؛ فإذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها كان أشد اجتهاداً في فعلها

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، (٣٧٥/٤).

(٢) شرح الأربعين حديثاً النووية، ص(٥٥).

(٣) سبق تخريجه، ص(١٧٦).

والقيام بها، وأعظم منه في أسباب معاشه ومصالح دنياه، وقد فقه هذا كل الفقه من قال من الصحابة لما سمع أحاديث القدر: ما كنت أشد اجتهاداً مني الآن »(١).

وقد قال النبي ﷺ : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز »(٢).

وروي عنه ﷺ أنه لما قيل له: أرأيت دواءً نتداوى به ورقى نسترقيها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: « هي من قدر الله »(٣). يعني: أن الله ﷻ قدر الخير والشر وأسباب كل منهما(٤).

والأسباب وإن عظمت إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئاً، بل لا بد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة، وعموم المصائب التي تصيب

---

(١) أعلام السنة المنشورة، ص(١٣٤).

(٢) رواه مسلم في كتاب (٤٦) القدر، باب (٨) في الأمر بالقوة وترك العجز، والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، (٤/٢٠٥٢) ح(٢٦٦٤).

(٣) رواه ابن ماجه، كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، والترمذي، كتاب الطب، باب ما جاء في الأدوية، ح(٢٠٦٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) انظر: أعلام السنة المنشورة، ص(١٣٤).

الخلق، من خير وشر، فكلها قد كتب في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، « وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنه أفئدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسير »(١).

ولهذا جاء في الحديث عن جابر بن عبدالله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه »(٢).

وقد علل النبي ﷺ نهيه عن قول «لو»؛ إذ أخبر أنها تفتح عمل الشيطان، وهذا لا شك فيه؛ لما فيها من التأسف على ما فات والتحسر، ولوم القدر، وذلك ينافي الصبر والرضى؛ والصبر واجب، والإيمان بالقدر فرض، قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص(١٢١، ٧٨١).

(٢) رواه الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره، ح(٢١٤٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٢/٤٤٦)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة، ح(٢٤٣٩).

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ : « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ». وقال الإمام أحمد: « ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من القرآن »[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ ـ وذكر الحديث بتمامه ـ ثم قال في معناه: « لا تعجز عن مأمور ولا تجزع عن مقدور، ومن الناس من يجمع كلا الشرين، فأمر النبي ﷺ بالحرص على النافع والاستعانة بالله، والأمر يقتضي الوجوب، وإلا فالاستحباب، ونهى عن العجز وقال: «إن الله يلوم على العجز ». والعاجز ضد: «الذين هم ينتصرون»، فالأمر بالصبر والنهي عن العجز مأمور به في مواضع كثيرة، وذلك لأن الإنسان بين أمرين:

ـ أمر أُمر بفعله، فعليه أن يفعله ويحرص عليه ويستعين بالله ولا يعجز.

ـ وأمر أصيب به من غير فعله فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه»[٢].

---

(١) فقه التوحيد من فتح المجيد وشرح الطحاوية، خالد عبدالرحمن العك، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، ص(٢٩٩).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى، (١٠٨/٢، ٣٢٥-٣٢٦)، (١٦٠/١٠، ٥٠٥)، (٢٥٩/١١-٢٦٠)، (٧٣/٨-٧٥، ٢٨٥)، وفقه التوحيد، ص(٢٩٩-٣٠٠).

ثـم قـال ﷺ : « فإن الإنسان ليس مأموراً أن ينظر إلى القدر عندما يؤمر به من الأفعال، ولكن عندما يجري عليه من المصائب التي لا حيلة له في دفعها، فما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم فاصبر عليه، وارض وسلم، قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن:١١]، ولهذا قال آدم لموسى: «أتلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن أخلق بأربعين سنة؟! فحج آدم موسى»[١]. لأن موسى قال له: « لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟! » فلامه على المصيبة التي حصلت بسبب فعله لها لأجل كونها ذنباً، وأما كونه لأجل الذنب ـ كما يظنه طوائف من الناس ـ فليس مراداً بالحديث، فإن آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس » [٢].

فالقدرية الذين ينكرون القدر يكذبون بهذا الحديث؛ لأن من عادة أهل البدع أن ما خالف بدعتهم إن أمكن تكذيبه كذبوه، وإلا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، فتح الباري (٥٠٥/١١). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، (٢٠٤٢/٤-٢٠٤٣).

(٢) مجموع الفتاوى، (١٧٨/٨-١٧٩).

حرفوه، ولكن هذا الحديث ثابت في الصحيحين وغيرهما[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « إن هذا من باب الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب؛ فموسى لم يحتج على آدم بالمعصية التي هي سبب الخروج، بل احتج بالخروج نفسه »[٢].

ومن اعترض على القدر، فإنه لم يرضَ بالله ربّاً، ومن لم يرضَ بالله ربّاً؛ فإنه لم يحقق توحيد الربوبية، والواجب أن ترضى بالله ربّاً، ولا يمكن أن تستريح إلا إذا رضيت بالله ربّاً تمام الرضا، وكأن لك أجنحة تميل بها حيث مال القدر[٣].

ويفهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن ما لا قدرة للإنسان فيه بعد بذله قصارى جهده واستعانته بالله عز وجل، فله أن يحتج عليه بالقدر لقوله صلى الله عليه وسلم: « ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل »، وأما الذي يمكنك فليس لك أن تحتج بالقدر.

ومعنى قوله: « قدر الله » أي: هذا الذي وقع قدر الله وليس إليّ، أما الذي إلي فقد بذلت ما أراه نافعاً كما أمرت، وهذا فيه

(١) انظر: القول المفيد على شرح كتاب التوحيد، (٢/٣٧٤).

(٢) مجموع الفتاوى، (١٠/١٦٠، ٥٠٥)، (١١/٢٥٩).

(٣) انظر: القول المفيد على شرح كتاب التوحيد، (٢/٣٦٥).

التسليم التام لقضاء الله ﷻ، وأن الإنسان إذا فعل ما أمر به على الوجه الشرعي؛ فإنه لا يلام على شيء، ويفوض الأمر إلى الله.

قوله: « وما شاء فعل » جملة مصدرة بـ«ما» الشرطية، و«شاء»: فعل الشرط، وجوابه: «فعل»؛ أي: ما شاء الله أن يفعله فعَله؛ لأن الله لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد:٤١].

ولكن يجب أن نعلم أنه ﷻ لا يفعل شيئاً إلا لحكمة، خفيت علينا أو ظهرت لنا، وبهذا التقرير نفهم أن المشيئة يلزم منها وقوع المشاء، ولهذا كان المسلمون يقولون: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وأما الإرادة ووقوع المراد؛ ففيه تفصيل: فالإرادة الشرعية لا يلزم منها وقوع المراد، وهي التي بمعنى المحبة، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٧]،بمعنى يحب، ولو كانت بمعنى يشاء لتاب الله على جميع الناس.

والإرادة الكونية يلزم منها وقوع المراد[١]. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟

---

(١) انظر: القول المفيد على شرح كتاب التوحيد، (٢/٣٧١-٣٧٢)، وشرح رياض الصالحين، (١/٤٦٤).

فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة:٢٥٣].

وفي الرواية الثالثة[١] للحديث قرن النبي ﷺ بين قوله: « احرص على ما ينفعك » بقوله: « وإياك واللو »، فالإشارة هنا إلى محل «لو» المذمومة وهي نوعان:

أحدهما: في الحال ما دام فعل الخير ممكناً فلا يترك لأجل فقد شيء آخر، فلا تقول: لو أن كذا كان موجوداً لفعلت كذا. مع قدرته على فعله ولو لم يوجد ذاك، بل يفعل الخير ويحرص على عدم فواته.

والثاني: من فاته أمر من أمور الدنيا فلا يشغل نفسه بالتلهف عليه، لما في ذلك من الاعتراض على المقادير وتعجيل تحسر لا يغني شيئاً ويشتغل به عن استدراك ما لعله يجدي، فالذمّ راجع فيما يؤول في الحال إلى التفريط وفيما يؤول في الماضي إلى الاعتراض على القدر، وهو أقبح من الأول، فإن انضم إليه الكذب فهو أقبح مثل قول المنافقين: ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة:٤٢]، وقولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾[آل عمران:١٦٧]، وكذا قولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا

---

(١) انظر: ص(١٢١) من البحث.

مَا قُتِلُواْ ﴾ [آل عمران:١٦٨]، ثم قال: وكل ما في القرآن من «لو» التي هي من كلام الله تعالى كقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقوله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء:٧٨]، ونحوهما فهو صحيح لأنه تعالى عالم به ... »[1].

ويستفاد من هذا الجزء من الحديث ما يلي:

١- أن الشريعة جاءت بتكميل المصالح وتحقيقها؛ لقوله: « احرص على ما ينفعك »، فإذا امتثل المؤمن أمر الرسول ﷺ فهو عبادة وإن كان ذلك النافع أمراً دنيوياً.

٢- أنه لا ينبغي للعاقل أن يمضي جهده فيما لا ينفع؛ لقوله: «احرص على ما ينفعك ».

٣- أنه ينبغي للإنسان الصبر والمصابرة؛ لقوله: « ولا تعجز »، فإن قال قائل: العجز ليس باختيار الإنسان، فالإنسان قد يصاب بمرض فيعجز، فكيف نهى النبي ﷺ عن أمر لا قدرة للإنسان عليه؟ أجيب: بأن المقصود بالعجز هنا التهاون والكسل من فعل الشيء؛ لأنه هو الذي في مقدور الإنسان.

---

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر، (١٣/٢٣٠).

٤- أن ما لا قدرة للإنسان فيه فله أن يحتج عليه بالقدر، لقوله: «ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل »» وأما الذي يمكنك، فليس لك أن تحتج بالقدر.

٥- أن للشيطان تأثيراً على بني آدم؛ لقوله: « فإن لو تفتح عمل الشيطان »» وهذا لا شك فيه، ولهذا قال النبي ﷺ: « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم »[1].

فقال بعض أهل العلم: إن هذا يعني الوساوس التي يلقيها في القلب فتجري في العروق.

وظاهر الحديث: أن الشيطان نفسه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وهذا ليس ببعيد على قدرة الله ﷻ ، كما أن الروح تجري مجرى الدم، وهي جسم، إذا قبضت تكفن وتحنط وتصعد بها الملائكة إلى السماء.

ومن نعمة الله أن للشيطان ما يضاده، وهي لمة الملك، فإن للشيطان في قلب ابن آدم لمة وللملك لمة، ومن وفق غلبت

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب (٣٣) الاعتكاف، باب (١١) زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، ح(٢٠٣٨)، (فتح الباري، ٢٨١/٤). ومسلم في السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رئي خالياً بامرأة ....، (١٧١٢/٤).

عنده لمة الملك لمة الشيطان، فهما دائماً يتصارعان نفساً مطمئنة ونفساً أمارة بالسوء، وأما النفس اللوامة فهي وصف للنفسين جميعاً.

٦- الإرشاد إلى الكلام الحسن بقوله ﷺ : « قل قدر الله وما شاء فعل ».

٧- حسن تعليم النبي ﷺ حين قرن النهي عن قول: «لو» ببيان علته؛ لتتبين حكمة الشريعة، ويزداد المؤمن إيماناً وامتثالاً. (١)

الخاتمـــة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد:

الإبحار مع حديث رسول الله ﷺ والتلذذ بما فيه من معانٍ عظيمة الشأن لا ينتهي، إنما خلصت إلى أن في:

١- هذا الحديث خبراً نبوياً عظيماً بخيرية المؤمن القوي والضعيف، وإن كان القوي خيراً وأحب إلى الله ﷻ .

٢- تضمن الحديث أوامر نبوية كريمة عظيمة الشأن منها:

---

(١) القول المفيد على شرح كتاب التوحيد، (٢/٣٧٥-٣٧٧).

- الحرص على كل ما ينفع الإنسان في دنياه وآخرته.
- الاستعانة بالله ﷻ وعدم العجز مع صدق التوكل على الله ﷻ، بعد الأخذ بالأسباب، وتفويض المقادير لله ﷻ.
- النهي عن قول: «لو» المذمومة التي تفتح عمل الشيطان.

٣- أثبت الحديث أن الله ﷻ موصوف بصفة المحبة.

٤- وصف ابن القيم لهذا الحديث بقوله: « إن الدين كله ظاهره وباطنه، شرائعه وحقائقه تحت هذه الكلمات النبوية » والله أعلم.

٥- ثناء الشيخ ابن عثيمين ؒ على هذا الحديث وإخباره بأننا لو سرنا على هدي هذا الحديث لاسترحنا كثيراً.

٦- في قوله ﷺ : « وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل »؛ أعظم وقاية ضد القلق النفسي وسائر الهواجس والاضطرابات النفسية التي يشتكي منها كثير من الناس حتى سماها بعضهم بمرض العصر. فمن آمن بهذا الحديث اطمأن قلبه وانشرح صدره وعلم أن كل ذلك بقضاء الله وقدره، وأنه خير له فيبتعد عن التضجر والزفرات والحسرات.

٧- وجوب تربية الناس وتعليمهم الإيمان بالقضاء والقدر، وعدم الاعتراض عليه بل التسليم والانقياد لأمر الله.